لغة المعري
- دراسة نقدية موجزة لأربعة نصوص -
من رسالة الغفران

أ. م.د. باقر جواد الزجاجي
كلية الآداب / جامعة أهل البيت (ع)

د.جعفر علي عاشور
كلية الآداب / جامعة أهل البيت (ع)

ملخص البحث

عرف المعري بين نقاد اللغة والأدب بأنه من المبتدعين الموسوعيين القلائل ، مرتكزًا على آراء الرواة والنقاد الأوائل بعد جمعها واستقرائها وحفظها .

ولعل ما ذهب إليه الدكتور (عز الدين إسماعيل) في وصفه لدارسي المعري جاء في محله من أنَّ معرفة المعري ونقده يجب أن تُستند إلى ذوي القدرات النقدية الخاصة والصفات المميزة ، متمثلة بالثقافة التاريخية والذوق والفهم ، كي يتسنى لهم الوقوف عند حدود منهجه التاريخي المحكم ، الذي جعله بارعًا ومُبتدعًا في استعماله التلقائي للغريب من اللفظ ، مما أفاضت له حافظته العجيبة من مأثور كلام العرب وشعرهم ، وقد وجدناه عبر ما أسفر عنه بحثنا – أنه كان معنيًا بتفسير النص وما يشتمل عليه من دلالات متنوعة ، ليخرج أقرب إلى الرأي الأصوب لغة ودلالة ، وهو جزء مما أسفرت عنه نتائج هذا البحث من خلال دراستنا للنصوص الأربعة المختارة من رسالة الغفران .

Abstract

Those who are specialized in linguistics and literature know AlMa'ari as a creative person based on the opinions of the earlier novelists and critics after classifying and memorizing these opinions .

Because of that Dr. Iz aldeen Ismaeel claims that the process of shedding light on al Ma'ari and criticizing him must be fulfiled_by those who have special abilities and qualities represented by culture , mood and good ability to analyze in order to be able to recognize his accurate way of writing which makes him specialized and creative in using the unusual words and expressions of the orations and the poetry of the Arabs .

The researcher concluded from this research , that Al Ma'ari was concerned with analyzing the text to approach the best figure in syntax and morphology , and this is one conclusion from those who are obtained from this research

المقـــدمة

الصحّائفُ الآتيةُ عرضٌ موجزٌ لمشاهدَ أربعةٍ من (رسالة الغفران) للمعري ، تزيّنتْ بومضاتٍ لغويةٍ ونحويةٍ ونقديةٍ طريفة من فكره الثاقب ، يعدّها عدد من النحاةِ خروجاً عن المألوف ، فيما عدَّها آخرون آراءً غيرَ مطروقة ، تنمُّ عن عمقٍ في الفَهم وسعةٍ في الخيال وسرعةٍ في البديهة .

ولعلَّ دارسَ الرسالةِ يقتضيه الأمرُ التزوّدَ بنصيب وافر من المعارف والخَبر ، والإحاطةَ بما هو طريفٌ منها والوقوفَ عند آراءِ ثلة من أصحاب المذاهب والمِلل ، وعلماءِ التفسير والحديث ، لاكتشافِ ما حَفلَتْ به طروحاتهُ من صورٍ فنيةٍ مبتكرة وأساليبَ بارعةٍ ميّزتْه مِن غيره ولهذا آثرنا الوقوف عند زاوية محددة من آرائه المتفردة ، ولم نشأ التوغل في فسيح ثقافته العامة لعدم حاجة موضوع البحث الى ذلك ، وقد رأينا أن نستفتح منهجنا بعرض النصوص المختارة كونها مادة التحليل الأساس ، مشفوعة بذكر معاني مفرداتها الغريبة وتخريج ما ورد من آيات وتوثيق ما ذكر من أبيات شعرية له ولغيره .

فيما خُصِّصَ المبحثُ الثاني للنقدِ والتعليق ، ببيان ما أُثِر عن المعرَّيّ من منطلقاتٍ لغويةٍ ونحويةٍ وصَرفية ونقدية ، بعد مظاهاتها بنظائِرها في الموروثِ العربي الإسلامي ، وقد إعتمدنا في تحقيق ذلك على عدد من المصادر والمراجع المثبتة في نهاية البحث ، فضلاً عما وقفنا عنده من ملاحظات بسيطة ظهرت في ثنايا البحث .. نأملُ أن تشكلَ حافزاً للآخرين على زيادة التعمّق في إعمالِ الذهن ، لاستكناهِ المخفيّ من الدلالة ، واستنباطِ الرّأي الأرجح فيما تحتملهُ النصوص المختارة وسواها من نصوص الرسالة من ظواهرَ نحويةٍ ولغوية ونقدية من شأنها خدمةُ الدرسِ النحوي خاصةً واللغة العربية على وَجه العموم . مثلما كانت عليه حال المعري .

والله الموفق لما يُريد

الباحثان

المبحث الأول : النصوص

أولاً : الشقاء بالأدَب [1]

((فَيهمُّ الشَّيخُ ، لاَ زَالَتْ همتُهُ عالية ، بأنْ يكتتبَ مِنه ، ثُمَّ يقولُ : لَقد شقيتُ في الدّارِ العَاجلةِ بجَمعِ الأدبِ ، وَلم أحْظَ مِنهُ بطائِل ، وإنّما كنتُ أتَقرَّب بهِ إلى الرُّؤساءِ ، فأحتَلِبُ منهُ دَرَّ بَكيءٍ(*) وَأجْهَدُ أخلاقَ مُصوّر ، وَلسْتُ بِمُوفقٍ إنْ تَركْتُ لذّاتِ ألجنَّةِ وَأقبلتُ أنتَسِخُ آدابَ الجِنّ ، ومَعي من الأدبِ ما هوَ كافٍ ، لا سيَّما وَقد شاعَ النسيانُ في أهلِ أدَبِ الجنَّة ، فصرتُ مِن أكثرِهم رِوايةً وأوسَعهم حِفظاً ، ولله الحمدُ .

ويقولُ لذلكَ الشَّيخ : ما كُنْيَتُكَ لأكرِمَكَ بالتَّكنيةِ ؟ فيقولُ : أبو هَدْرَش ، أوْلَدْتُ مِن الأولادِ مَا شاءَ اللهُ ، فَهُم قَبائلُ : بَعْضهُم في النارِ الموقَدة وبَعضُهم في الجِنانِ . فيقولُ : يا أبا هَدْرَش ، مَالي أراكَ أشيب وأهلُ الجنَّةِ شَبابُ ؟ فيقولُ : إنَّ الإنسَ أُكْرِموا بذلكَ وحُرِمناه ، لأنّا أُعطِينا الحَوْلَةَ في الدارِ الماضيةِ ، فكانَ أحدُنا إنْ شاءَ صارَ حيَّةً رقشاءَ(*) وإنْ شاءَ صارَ عُصفورا ، وإنْ شاءَ صارَ حَمامَةً ، فَمُنِعْنا التّصوّرَ في الدارِ الآخرةِ ، وَتُركنا عَلى خَلْقِنا لا نَتَغَيرُ ، وَعُوّضَ بَنو آدمَ كونُهم فيما حَسُنَ مِن الصُّورِ، وَكأنَّ قائِلَ الأنسِ يقولُ في الدارِ الذاهبةِ ، أُعْطِينا الحِيلَةَ ، وأُعْطِيَ الجِنُّ الحَوْلَةَ[2].

وَلَقدْ لَقيتُ مِن بَني آدمَ شَراً ، وَلَقوا منّي كَذلك .))

ثانياً : مِن طَواويس الجنَّة[3]

وَيَعبُرُ بَينَ تِلكَ الأكْداسِ ، أي الجَماعاتِ ، طاووسٌ مِن طواويسِ الجنَّة يَروقُ مَن رآهُ حَسْنا ، فَيشْتَهيهِ أبو عُبيدةَ مَصُوصاً ، فَيتكوَّنهُ كذلكَ في صَحفَةٍ مِن الذّهبِ . فإذا قُضيَ مِنهُ الوَطَر ، إنضمّتْ عِظامُهُ بَعضُها إلى بعضٍ ، ثُمَّ تَصيرُ طاووساً كَما بَدا . فَتقولُ الجَماعةُ : سُبحانَ مَنْ يُحيي العظامَ وَهيَ رَميمٍ ! هذا كما جاء في القرآنِ الكريم : ﴿ **وإذْ قالَ إبراهيمُ : رَبِّ أَرني كيفَ تُحيي المَوتى ؟ قالَ : أَوَلَمْ تُؤمِن ؟ قالَ : بَلى ، وَلكنْ لِيطْمَئنَّ قَلبي ، قالَ : فَخُذْ أربعةً مِن الطيرِ فَصِرهنَّ إليكَ ، ثم اجْعَلْ على كُلِّ جَبَلٍ مِنهُنَّ جُزْءًا ، ثمَّ ادعُهنَّ يأتينَكَ سَعْياً ، واعلَمْ أنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيم﴾ (البقرة / 259) .**

ويقولُ هوَ ، آنَسَ اللهُ بحياتهِ ، لمَنْ حَضر : ما مَوضعُ يَطمئنَّ ؟ فَيقولونَ : نَصْبٌ بلامِ كَي . فَيقول : هَل يجوزُ غَيرُ ذلِك ؟ فَيقولونَ : لا يَحْضُرنا شَيءٌ . فَيقولُ : يَجوزُ أَنْ يكونَ في موضعِ جَزمٍ بلامِ الأمرِ ، وَيَكونُ مَخْرجَ الكلامِ مَخرجُ الدُّعاءِ ، كما يُقال : يا ربِّ أغفرْ لي، وَلْتغفرْ لي . وأما قَولهُ الحكايَةَ عن عَازر[4] : ((قالَ أعلَم أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قدير)) **(البقرة / 258)** ، فَقد قُرِئَ برفعِ الميمِ وَسُكُونِها ، فالرَّفعُ على الخَبر ، والسُّكونُ على أنَّهُ أمرٌ من اللهِ جَلَّ سُلطانُه .

وأجازَ أبو عليٍّ الفارسيُّ أن يكونَ ((أعلم)) مُخاطَبة مِن عازِرَ لِنفْسِه[5] ، لأنَّ مِثلَ هذا مَعروفٌ . يقولُ القائِلُ ، وهوَ يَعْني نَفسَهُ : وَيحكَ ما فَعلْتَ وَما صَنَعْتَ! وَمِنهُ قولُ الحادرة الذّبياني :

بَكَرَتْ سُميَّةُ غُدوَةً فَتمتَّعِ وَغَدَتْ غُدوَّ مُفارِقٍ لَمْ يربَعِ[6]

ثالثاً : مع حسان بن ثابت[7]

وَيَمُرُّ حسانُ بنُ ثابتٍ فَيقُولون : أهلاً أبا عَبد الرحمن ، ألا تُحدِّثُ مَعَنا سَاعَةً ؟ فإذا جَلسَ إليهم قالوا : أينَ هذهِ المشْروبَةُ مِن سَبيْئَتكَ التي ذكرْتَها في قولك ؟!

كأنَّ سَبيْئَـةً مِن بيـتِ رَأسٍ يكـونُ مِزاجُـها عَسلٌ وَمـاءُ[8]
على أنيـابِها ، أوْ طَعم غَـضٍ منَ التفّـاحِ هَصَّـرهُ أجْتنـاءُ
عَلى فيها ، إذا ما الليلُ قلّتْ كـواكِبهُ ، وَمَـالَ بها الغِطـاءُ
إذا مَا الأشـرُباتِ ذُكِرنَ يَومـاً فَهُـنَّ لِطَيّبِ الـرَّاحِ الفِـداءُ

وَيحكَ ! ما استحييتَ أنْ تذكُرَ مثلَ هذا في مدحتِكَ رَسول اللهِ ، صَلّى اللهُ عليهِ وَسلم ، فيقولُ : إنّهُ كانَ أَسْجَحُ[9] خُلُقاً مما تَظنون ، ولم أَقُلْ إلا خيراً ؛ لم أذكُر أنّي شَربتُ خَمْراً ، وَلا رَكبتُ مما حُظِرَ أمراً وَإنّما وَصفْتُ ريق امرأةٍ ، يَجوزُ أنْ يكونَ حِلاً لي ، وَيمكنُ أنْ أقولَه على الظّن . وَقد شَفَع ، صَلّى اللهُ عَليهِ وَسلّم في أبي بَصير بَعدَما تهكّمَ في مَواطِنَ كثيرةٍ ، وَزعَمَ أنَّهُ مُستر[10] ، مفترياً أوْ لَيسَ بِمُفترٍ . وَما سُمع بأكرمِ مِنه ، صلّى اللهُ عَليهِ وسلّم : لقَد أفكتُ [11] فَجَلَدني مَع مسْطح ، ثُمَّ وَهبَ لي أختَ ماريّةَ فَولَدتْ لي عبدَ الرّحمن ، وَهيَ خالَةُ وَلَدهِ إبراهيم .

وَهوَ ، زَيَّنَ اللهُ الآدابَ ببقائِهِ ، يَخْطرُ في ضَميرهِ أشياءُ ، يُريدُ أنْ يَذكُرَها لِحسَّان وَغيره ، ثُمَّ يخافُ أن يكونوا لِما طَلَبَ غَير مُحسِنين ، فيضربُ عَنها إكراماً للجليسِ ، مثل قَولِ حسانٍ : ((يكونُ مِزاجُها عَسَلٌ وَمَاءُ)) [12].

يَعرضُ لَهُ أنْ يَقولَ : كيفَ قُلْتَ يا أبا عبد الرّحمن : أيكونُ مِزاجُها عسل وماء ام مزاجها عسلاً وماءً أم مزاجها عسل وماء عَلى الإبتداءِ والخَبرِ ؟ وَقولهُ:

فَمنْ يَهجُو رَسولَ اللهِ مِنكـم وَيَمـدَحُه وَينصُرُه ، سَـواءُ[13]

يذهبُ بَعضهم إلى أنَّ (مَنْ) محذوفةٌ منْ قولِكَ : وَيمدحهُ وينصرهُ ، على أنَّ ما بعدَها صلةٌ لَها . وَقال قومٌ : حُذِفتْ على أنّها نكِرةٌ ، وَجُعلَ ما بَعدها وَصْفاً لها .

فأُقِيمتْ الصّفةُ مقامَ الموصوفِ . وَيقولُ قائِلُ القومِ : كيفَ جبْنكَ يا أبا عبد الرحمن ؟ فيقولُ : إليَّ يُقالُ هذا وَقومي أشجَعُ العربِ ؟ أرادَ ستةً مِنهُم أن يَميلوا على أهْلِ المَوسمِ بأسيافِهم ، وأجاروا النَبيَّ صَلَّى اللهِ عَليهِ وسلّم ، على أنْ يُحاربوا معَهُ كلَّ عَنودٍ [14] ؛ فَرمتْهم ربيعةُ وَمُضَرُ وَجميعُ العَرَبِ عن قَوْسِ العَداوَةِ ، وأضْمَروا لهم ضَغنَ الشَّنآنِ [15] . وإنْ ظَهرَ منّي تَحرُّزٌ في بَعضِ المواطنِ ، فإنّما ذلكَ على طريقَةِ الحَزْمِ ، كما جاءَ في الكتابِ الكريمِ :

﴿ وَمَنْ يُوَلِهِم يَوْمَئِذٍ دُبُرَه إلاّ مُتَحرِّفاً لِقتالٍ أوْ مُتحيّزاً إلى فِئَـةٍ ، فَقَد بـاءَ بِغَضبٍ مِنَ اللهِ ، وَمـأْواهُ جَهنَّمُ وَبئسَ المَصير ﴾ (سورة الأنفال /8) .

رابعاً : حديثُ الدَّينُونَة [16]

فَيقولُ ، أَنطْقهُ اللهُ بكلِ فَضْلٍ ، إنْ شَاءَ رَبُّه أَنْ يَقولَ : أَنا أقصُّ عَليكَ قصَّتي:

لمّا نَهضْتُ أَنتفِضُ مِنْ الرّيمِ [17] ، وَحضَرتُ حَرصاتِ القِيامةِ ، والحرصاتُ مِثلُ العَرصاتِ ،أُبدِلت الحاءُ بالعيَنِ ، ذَكرتُ الآيَةِ : ﴿ **تعْرجُ الملائكةُ وَالروحُ إليه في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سَنةٍ ، فاصبِر صبْراً جَميلاً ﴾ (المعارج /70)** ، فطالَ عليَّ الأَمد ، وأشْتدَّ الظَّمأ وألوَمَد ، وَألوَمَدُ : شدَّةُ الحرّ وسكونُ الرّيح ، كما قالَ أخوكُم النّميري[18] :

كأنَّ بِيضَ نعامٍ في مَلاحِـفها[19] جَلاهُ طَلٌّ وَقيَّظَ لَيـلَـهُ وَمـدُ [20]

وأنا رَجُلٌ مِهيافٌ ، أي سَريعُ العَطَشِ[21] ، فافتكرتُ ، فَرأيتُ أمراً لا قِوامَ لِمثلي بِهِ . وَلَقيَني المَلَكُ الحَفيظُ بما زبَّرَ[22] لي مِنْ فِعلِ الخيرِ ، فَوجَدْتُ حَسَناتي قليلةً كالنَّفأ في العامِ الأرمَلِ[23] ، وَالنَّفأ الرياضُ، وَالأرمَل قليلُ المَطَرِ ، إلاّ أَنَّ التَّوبة في آخِرها كأنَّها مِصباحٌ أبْيَلُ ، رُفِعَ لسالِكِ السَّبيلِ

المبحث الثاني :

مشاهد أربعة من رسالة الغفران
ـ تحليل ونقد –

توطئــة :

من بين ما وسمتْ به رسالةُ الغفران للمعري [24] ، لغتها العالية التي ألّفت أبرز خصائص أسلوب المعري عِبرَ عرض قصصي مسرحي متشح بالاستطراد المستملح الذي يذكرنا – في جانب منه – بأسلوب الجاحظ ، فقد ألفينَا أبا العلاء كثيراً ما يقلب الكلمةَ الواحدةَ في وجوهٍ عدة (بِنيةً ودَلالة) حتى لا يُبقي قولاً لقائل ، ثمَّ إذا به ينهدُ للأمر عارضاً بثقة ويقين رأيه الراجحَ بينَ آراءٍ عديدةٍ ، استغرقتْها حافظتُهُ الفريدةُ ، التي لا شكَّ في أنَّهُ استمدّها من مصادر ثقافته المتنوعة (العقلية والنقلية) التي طالما كانت مبعثَ غبطةٍ لتلاميذِهِ ومدعاة حسدٍ لكثير من معاصريه ، إذ لم يجدوا معه ما يدفعهم إلى التعريض به ، أو ما يُسفهون به له رأياً ، بله تفنيده .....

فأبو العلاء ، مثلما يرى عدد من دارسيه: ((.... كان ثقة حُجة في العلم لجود علمه وقوة فهمه ، وأنه لم يُتهم بكذب ولم يطعن عليه بتدليس ، وقد كان الرجل يرى في نفسه هذا الرأي فيثق بها فيما يحدث ويكتب ... وليس بالغريب عنا رده على (التبريزي) عندما طالبه هذا بالسَّند بعد إتمامه قراءة كتاب (إصلاح المنطق) لأبن السكيت عليه ، قولته المأثورة : إن كنت تريد العلم فخذه عني ، ولا تعدُني ، وإن كنت تريد الرواية فاطلبها عند غيري . وهذا يدل – كما يرى القفطي – على أن أبا العلاء كان يثق بنفسه ، ويعتقد أنه أدرك اللغة ، وأنها في عصره لأنضج منها في عصر ابن السكيت [25] ... وفي عرضنا السريع المتواضع للمشاهد الأربعة الآتية ، حاولنا الوقوف عند بعضٍ من لفتاته اللغوية والنحوية والنقدية والصرفية فضلاً عن خزائن العلم والمعرفة ، ذلك أن عالم المعري عالم فسيح لا يطاله إلاّ من امتلك ناصية اللغة.

ولعل ما واجهنا في النصوص الأربعة من صور فنية متحركة تشعُ بالقيم الإنسانية الخيرة التي جسدها الإسلام بروحه السامية وَدَعَت لها الديانات السماوية الأُخرى ، كان يُغري بالكشف والتحليل،غيرَ أننا آثرنا الاقتصار على جانبٍ واحدٍ منها أولاهُ المعري المزيد من اهتمامه ، وأعني به اللغة والنحو،فأفاضَ به من ثقافته الواسعة والمبدعة الشيء الكثير والأثير .

ففي **المشهد الأول**،الذي يتصل بمشاهده مع الجن ، تحت عنوان : ((الشقاء بالأدب)) .

يورد المعري العديد من المترادفات اللغوية والمشترك اللفظي – في إطارمن (الثنائيات) اللغوية ، وغيرها من فنون الكلام المُعبرة عن قدراته المُتميزة في هذا المضمار – ضمن تراكيب عديدة ، وكأني به يوظف قاصداً بحسٍ لغوي عال عنصراً فعالاً من عناصر(الأسلوب) كما تواضع عليه آخرون ولا سيما على يد عبد القاهر الجرجاني في نظريته للنُظم ، وما تواتر لدى المحدثين ، بدءاً من سوسير ؛ وانتهاء بأصحاب المنهج البنيوي في تفكيكهم لبنية النص الأدبي ، وتوصيف شبكة العلاقات التي تؤلف نظامه الداخلي وأنساقه اللغوية ، وانعكاسها على شعرية النص من جهة ، وعمق مدلولاته وتشعبها من جهة أُخرى ولا سيما في نظر المتأخرين منهم مثل (كَولدمان) .. فقد كان المعري قد فطن إلى ذلك – سابقاً عصره – باستخدام المكثف في هذا المشهد بالذات

(الشقاء بالأدب) ، إذ لم ألمسه في المشاهد الثلاثة الأخرى ، فهو يقول من بين ما يقول فيه ، ضمن (14) سطرا فقط (مساحة النص بكامله) :

1. **فَيَهِمُّ الشيخُ ، لا زالتْ همَّتهُ عالية .**
2. **ما كنيتك لِأكرمك بالتكنية ..**
3. **أوْلَدتُ من الأولاد ما شاء الله ..**
4. **أنتسخ آداب الجن ، ومعي من الأدب ما هو كاف ..**
5. **بعضهم في النار وبعضهم في الجنان ..**
6. **مالي أراك أشيب وأهل الجنة شباب ..**
7. **إن شاء وإن شاء ..**
8. **كأن قائل الإنس يقول :**
9. **فمنعنا التصور ... فيما حسن من الصور .**
10. **أعطينا الحيْلة ، وأُعطي الجن الحَوْلة .**
11. **ولقد لقيت من بني آدم شر ، ولقوا مني كذلك .**

إن العملية الإبداعية ضرب من الاختيار الواعي يستقي الباث الوسائل التعبيرية الملائمة لغرضه مما تمده اللغة عموماً ، فكان لا بُدَّ للأساليب إن تتفاوت بتفاوت أصحابها ما دامت العملية الإبداعية اختيارا أو انتقاء للمسات لغوية معينة تبرز شخصية المبدع وتميزه من سواه .

ولعلَّ أسلوبه أو اختياره يدل على ذوقه وإحساسه المرهف بالألفاظ ووقعها في النفوس ؛ وان هذا المستوى من الأداء قد أدركه المعري ، فكانَ لهُ الباع الطويل في إبراز مزايا اللفظ المختار ، وما يؤديه في موضعه من دلالات هامشية فوق دلالتها المنوطه به في أصله ، وبيان ما لو استبدل لفظ بآخر في موضعه كيف يفقد المعنى تحقق أجزائه كاملة ، موقناً باستيفاء اللفظ لكامل أجزاء المعنى أو بعبارة أُخرى ما تُعطيه اللفظة من معانٍ ودلالات إلى جانب الدلالة الأساسية التي قد تشترك فيها مع غيرها من المفردات [26] ، لذا أحس المعري بأن الجناس بين (فَيهمُّ - وهمته وكنيتك - التكنية ، وأولدت - الأولاد ، وأشيب - شباب ...)) يُجسد حرصاً واضحاً على تحقيق ضرب من المماثلة الصوتية [27] ، وهذهِ المماثَلة الصوتية في الجرس تدفع الذهن إلى التماس معنى تنصب إليه اللفظتان بما يُثيره من انسجام بين نغم التشابه اللفظي ومدلول كل كلمة على المعنى المراد في سياقٍ ما[28] .

هذا وقد مثل الجناس لدى النُقاد البلاغيين مظهراً أسلوبيًّا مهما يُجسد قدره المنشئ على استثمار إمكانات اللغة في الاشتراك والاشتقاق ، لإيجاد تموجات صوتية تُمثل إيقاعات متوازنة تُضفي على الكلام تناسُباً وجمالاً ، وهكذا تناولوه بتقسيمات عدة [29] ، تُمثل حرصهم على تحقيق أكبر قدر ممكن من التلاؤم الصوتي ممزوجاً بتغاير المعنى .

وفي **المشهد الثاني** يُبدي المعري رأياً نحوياً غير مطروق – ينم عن سرعة بديهة ، بله سعة الخيال وعمق الفهم – إذ يجعل من الفعل المضارع (يطمئن) الوارد في قوله تعالى : ﴿ **ليطمئن قلبي** ﴾ **(البقرة /259)** ، في موضع جزم بلام الأمر ، فضلاً عن مجيئه منصوباً بلام التعليل ، فهو يسوغ كونها لام أمر خرجت إلى الدعاء ، مستشهداً بعبارة (لتغفرلي) لمن يريد الدعاء بقول : (يا رب أغفر لي) ، ولعله أراد القول بانتهاء إجابة إبراهيم (عليه السلام) لربه بقوله : (بلى) . واستئنافه الكلام بدعاء بعد لكن الاستدراكية ، طالباً الاطمئنان من خلال الدعاء بلام الطلب[30] .

وفي موضع آخر يرى المعري أن تخريج حركة (إعلمْ) في قوله تعالى في الحكاية عن عازر : ﴿ **قال اعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ **(البقرة / 259)** على السكون فالضم على الخبرية ، بتقدير (أنا) المبتدأ المحذوف . فالسكون على كونه أمرا من الله ، ولا يفوت المعري الإشارة إلى رأي أبي علي الفارسي في جواز مخاطبته نفسه بالأمر [31] ...

وفي **المشهد الثالث** ، تحت عنوان : ((مع حسان بن ثابت)) يعرض المعري من خلال صورة متخيلة بارعة بإطار مسرحي ، موشاة بالاعتذار – تحفظه على مقولة الشاعر حسان بن ثابت ، على ما عُرف به من نصاعة في البيان وفصاحة في اللسان [32] ، ضمن بيته المأثور :

((كأنَّ سبيئةً من بيتِ رأسٍ يكون مزاجُها عَسلٌ وماءُ))[*]

إذ يأخذ علية إيراد (عسلٌ وماءٌ) على الرفع ، على تخريج عسل على الخبرية للمبتدأ (مزاجها) ، وهو ضعيف بل قبيح كما يعتقد المعري ، لأن الأسمين ها هنا احدهما نكرة والآخر معرفة ، وهما في بيت حسان نكرتان [33] ، على حين أن مألوف كلام العرب بَلَهَ القياس ، يجب أن يحمل على الخبرية للفعل الناقص (يكون) فيكون (عسلاً وماءً) ، لا (عسلٌ وماءٌ) .. وينوه المعري في موضوع آخر لظاهرة نحوية وهي (إقامة الصفة مقام الموصوف) ، كما بدت في بيت حسان :

((فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره ، سواء))[*]

إذ ذهب قوم على أنها حذفت لكونها نكرة وجعل ما بعدها وصفاً لها ، وآخرون عدّوا (من) محذوفة من قوله : ويمدحه وينصره ، على أن ما بعدها صلة لها .. وفي كل ذلك ما يُعزز من قدر المعري النحوي وسعة أفقه فيه .

ويبدو المعري هنا ناقداً لغوياً محضاً ، قد انصرفت عنايته بلغة الشاعر إلى متابعة ما في شعره من مواطن الخطأ التي تشير إلى خروج واضح على أُسس اللغة الصحيحة .

ذلك أنَّ ((الكشف عن العيوب كان أحد مهمات النقد الكبرى))[34] ، وهدف من أهدافه لإبراز الحسن للاقتداء به ، وإظهار القبيح للابتعاد عنه [35] ، ومن هنا سعى المعري إلى الكشف عن العيوب والأخطاء التي وقع فيها الشاعر ، فهي عملية ضرورية ؛ لان تشخيص العيب ، والإرشاد إلى الصواب قضية تتصل بالنص الشعري في خطوة من لدن الناقد لتقويمه.

ويكون هذا القسم عنده نقطة وهاجة ومشرقة في مجمل نقده اللغوي ، وهو القسم الذي رجح رأياً نحوياً واختاره على الآخر وذكر أسباباً لهذا الترجيح ، والذي يهم في هذا الموضوع هذه المسوغات التي أوردها المعري ، إذ أكدت عدَّة قضايا ، منها ذوقه الفني وخبرته الدقيقة بأساليب الشعراء ، وطرائقهم في التعبير الشعري ، ثم فقهه في أسرار العربية وأغوارها .

ولنا أن نعتقد بأن المعري لم يكن مبتدعاً في هذا ، فقد حفلت كتب اللغة والأدب والنقد بصور كثيرة من هذا النوع من النقد ، وعلى مُدد زمنية مستمرة[36] ، فكان مقياسه المعتمد للفصل بين الخطأ والصواب مستمداً من آراء العلماء الرواة والنقاد الأوائل بعد جمعها واستقرائها وحفظها .

وفي معالجة المعري لـ ((جبن حسان)) [37] ، الذي تناوله بالشرح والتحليل ، أجد ملامح ما يُسميه نُقادُنا المعاصرون ، بـ ((المنهج التاريخي)) في تحليل النص ، وهو الذي يعتمد في تحليله على ما يُحيط بالنص وكاتبه من ظروف خارجية ، وكأنه بموقفه هذا يُخبر القارئ أن التاريخ للآداب عامة ، والشعر خاصة ، مسؤولية لا يستطيع القيام بها إلا ذوي القدرات النقدية الخاصة ، والصفات المميزة ، وأهم تلك الصفات ؛ الثقافة التاريخية ، والذوق والفهم [38] .

وفي **المشهد الرابع** : ((حديث الدينونة)) ، ينقلنا المعري إلى مستوى آخر من اللغة وهو استعماله التلقائي للغريب من اللفظ ، مما زخرت به حافظته العجيبة من مأثور كلام العرب وشعرهم ، فإذا بها تنثال على لسانه بعفوية طاغية وبَداهة مذهلة ، فلا يدعها تطوف على أسماعهم وتستضيفها عقولهم وكأنها زائر غريب ، بل يعاجل لتفسيرها وتحليلها وبيان أثرها .. فنراه يضمن مشهده الذي لا يتجاوز عشرة الأسطر خمسة ألفاظ جديدة على تلاميذه ويجتهد لتوضيحها مشفوعة بالأدلة التوثيقية من القرآن الكريم وجيد الشعر والفصيح من مأثور كلام العرب ، وهذه الألفاظ على التوالي ، كما وردت في النص المذكور آنفاً :

[حرصات ، الوَمَد ، مهياف ، النفأ ، الأرملٍ]

وهكذا نرى المعري يتفنن في غرائب اللغة ، وأوابد مفرداتها ، بحيث لا يستطيع الباحث على فهم ألفاظه ، وإدراك معناها ، إلا بالرجوع إلى شروح الرسالة ، أو المعاجم اللغوية المعروفة .

أخيراً ، وفي خاتمة المطاف في مقام المعري ، لا يسعنا إلاّ القول ، بأنَّ مَن ضاقتْ عن ذكرِ أفضالِه أشعارُ القدامى والمحدثين ، عرباً وأجانب يتعذر على دارس رسالته الوفاء له كل الوفاء .....

فهرست الهوامش

1- رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري : (حققه وقدم له : فوزي عطوي) : ص 140 .
* البكئ : الناقة التي تضن بلبنها .
* رقشاء : رقطاء
2- الحولة : ومصدرها التحول أي تبدل الشكل ، أما ألحوله من الرجال فتعني : المحتال الشديد الاحتيال ، ومن الأمور العجب ويُقال : هذا من حولة الدهر عجائبه . ينظر : المعجم الوسيط : 208./1
3- رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري : ص 132 - 133.
4- عازر : هو أحد الأنبياء ويسمى أيضًا عزير والخضر .
5- قال أبو علي : (معناه أعلم هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته ، يعني يعلم عيانا ما كان يعلمه غيبا . وأما على قراءة أبي رجاء وحمزة والكسائي (إعلم) ، فعل أمر من علم ، فالفاعل يعود على الله تعالى ، أو على الملك القائل له عن الله ...)) .
ينظر : البحر المحيط ، لِأبي حيان الأندلسي : 641/2 .
6- البيت في المفضليات :
بكرت سمية بكرةً فتمتَّعِ وغدت غُدُوّ مفارق لم يربعِ
ينظر : المفضليات ، للمفضل الضبي : 44.
7- رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري : ص 105.
8- الأبيات في الديوان تروى :
كأن خبيئةً من بيت رأسٍ يكون مِزاجَها عَسَلٌ وماءُ
على أنيابها أو طعم غضٍ من التفاح هَصَّرَه اجتناءُ
إذا ما الأشربات ذكرن يومًا فهنَّ لطيِّبِ الراحِ الغداءِ
أما قوله : ((عن فيها ، إذا ما الليل ...)) فهو بيت زائد كما ذكر محقق الديوان . ينظر : ديوان حسان بن ثابت الأنصاري : 17/1-21 .
9- أسجع : أسهل خلقًا .
10- مستر : مدلج ، أي سائر في الليل .
11- الافك : الكذب .
12- وتمامه : كأن خبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسلٌ وماء
ينظر : ديوانه : 17/1 .
13- ينظر : ديوان حسان بن ثابت الأنصاري : 18/1 .
14- عنود : عَتي ، لا يرعوي .
15- ضغن الشنآن : حقد المبغض .
16- رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري : ص 114.
17- الرّيم : القبر .
18- النميّري : شاعر أموي ، ينظر : ترجمته في الأغاني : 190/6 وما بعدها.
19- ملاحف : مفردها ملحفة أي الغطاء .
20- هذا المطلع يشبه مطلع قصيدة للشاعر أمرئ القيس وهو :
قفا نبكي من ذكرى حبيب ومنزل .....
21- هيف :... وفلان هيف : لا يصبر على الماء ، واهتاف إذا عطش
ينظر : أساس البلاغة : 709، وينظر : المعجم الوسيط : 1014/2.
22- زبر : سجل .
23- النفأ : القطع المتفرقة من النبت . ينظر المعجم الوسيط : 945/2 .
وأرمل : قليل المطر ، والأرمل من الأعوام القليلة المطر والنفع والخير : ينظر : المعجم الوسيط : 375/1 .
...وعام أرمل ، وسنة رملاء : جدبة ، أساس البلاغة : 253.
24- أنظر في ترجمة وأخبار المعري ، وفيات الأعيان ، لابن خلكان : 1113/1-115 ، وتاريخ الأدب العربي : د. عمر فروج : 124/3-137 ، والجامع في تاريخ الأدب العربي : حنا الفاخوري : 343-349 .
25- ينظر : من تاريخ الأدب العربي ، طه حسين : 577 .
26- ينظر : المذاهب النقدية ، د. ماهر حسن نهمي : 11 .
27- ينظر : بُنية اللغة الشعرية ، جان كوهين : 82 .
28- ينظر : جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي ، د. ماهر مهدي هلال : 284 .
29- للوقوف على هذهِ التقسيمات يُنظر : معجم المصطلحات البلاغية:414/2 .
30- ينظر : إعراب القرآن وبيانه ، محي الدين درويش : 347/3 .

31- في هذا الصدد تم الرجوع إلى تفسير ابن كثير فوجدناه أن أبا علي الفارسي يذهب إلى اعتبار (أَعلَمُ) فعلا مضارعا لفاعل مستتر تقديره (أنا) . أي أنا أعلم بهذا ، وقرأ آخرون : (قال أعلم) على أنه أمر له بالعلم وقد رأيته عيانا فانا أعلم أهل زماني بذلك . وهذا ما ذهب له شبّر و الزمخشري في الكشاف . ينظر : إعراب القرآن العظيم ، لابن كثير : 321/1-322 ، وتفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر : 80 ، والكشاف ، للزمخشري : 295/1-296 .

32- فهو أشعر أهل القرى عند ابن سلام ، ينظر: طبقات فحول الشعراء : 215/1 ، وفحل من فحول الجاهلية ، ينظر : الشعر والشعراء ، لابن قتيبة : 311/1 ، وقال أبو عبيدة : ((وأجمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر)) ، ينظر : الأغاني : 136/4 .

* البيت في الديوان : كأن خبيئةً من بيت رأس... ينظر ديوانه : 17/1 .

33- ينظر عبث الوليد : ، أبو العلاء المعري : 125.

* ينظر : ديوانه : 18/1 .

34- تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، د. إحسان عباس : 93 .

35- ينظر : مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، توفيق الزبيدي : 157 .

36- ينظر : النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، د. سبينه أحمد :205 ، والنقد اللغوي عند العرب ، د. نعمة رحيم العزاوي : 153

37- عن هذه القضية ينظر : السيرة النبوية ، لابن كثير : 208/3-209 .

38- ينظر : الأسس الجمالية في النقد العربي ، د. عز الدين إسماعيل : 99-100 .

ثبت المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم
2- أساس البلاغة ، جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (ت:538هـ) ، دار صادر ،بيروت ، 1979 م .
3- الأسس الجمالية في النقد العربي ، د. عز الدين إسماعيل ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1986 م .
4- إعراب القرآن وبيانه ، محي الدين الدرويش ، ط1 ، مطبعة سلمان زاده ، إيران ، 1425 هـ .
5- الأغاني ، أبو الفرج بن الحسين بن محمد القرشي الأصفهاني (356 هـ) ، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ، مط مؤسسة جمال للطباعة (د.ت) .
6- البحر المحيط في التفسير ، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي (ت: 754هـ) ، بعناية الشيخ زهير جعير ، مطبعة دار الفكر ، بيروت ، 1992م .
7- بنية اللغة الشعرية ، جان كوهين ، ترجمة : محمد الولي ومحمد العمري ، مطبعة فضالة المحمدية ، الدار البيضاء ، 1986م .
8- تاريخ الأدب العربي ، د. عمر فروخ ، ط6 ، دار العلم للملايين ، بيروت لبنان ، 2006م .
9- تاريخ النقد الأدبي عند العرب نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، د. إحسان عباس ، ط2 ، دار الثقافة ، بيروت ، 1978 م .
10- تفسير القرآن العظيم ، ابن كثير القرشي ، دار المعرفة ، بيروت ، 1987م.
11- تفسير القرآن الكريم ، السيد عبد الله شبر ، ط3 ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 1977م .
12- الجامع في تاريخ الأدب العربي : حنا فاخوري ، ط3 ، مطبعة سليمان زاده ،إيران ، (د.ت) .
13- جرس الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب ، د. ماهر مهدي هلال ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ، 1980م .
14- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري ، تحقيق : د.وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ، 1974م .
15- رسالة الغفران ، أبو العلاء المعري ، حققه وقدم له فوزي عطوي ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت ، 1968 م .
16- السيرة النبوية ، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (774 هـ) ، تحقيق : مصطفى عبد الواحد ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، (د.ت) .
17- الشعر والشعراء ، ابن قتيبة الدينوري (276هـ) ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، (د.ت) .
18- طبقات فحول الشعراء ، أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (231 هـ) ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1974م .
19- عبث الوليد ، أبو العلاء المعري ، تحقيق وتعليق ، محمد عبد الله المدني ، ط8 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، د.ت .
20- الكشاف، أبو القاسم جار الله الزمخشري ، (538هـ) ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، 1948م .
21- المذاهب النقدية ، د.ماهر حسن فهمي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، (د.ت) .
22- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، د. أحمد مطلوب ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، 1983م .
23- المعجم الوسيط ، قام بإخراجه ، إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومحمد علي النجار ، مط دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، (د.ت) .
24- المفضليات ، للمفضل الضبي ، تحقيق وشرح : احمد محمد شاكر ، وعبد السلام محمد هارون ، دار المعارف بمصر ، 1976م .
25- مفهوم الأدبية في التراث النقدي ، توفيق الزبيدي ، دار سراس للنشر ، 1984م.
26- من تاريخ الأدب العربي ، د. طه حسين ، ط1 ، بيروت ، 1974م.
27- النقد عند اللغويين في القرن الثاني ، د. سنيه أحمد محمد ، مطبعة دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، 1977م .
28- النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري ، د. نعمة رحيم العزاوي ، دار الحرية للطباعة ، بغداد 1978م.
29- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أبو العباس الدين أحمد بن أبي بكر بن خلكان (681هـ) ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط2 ، مطبعة الشريف الرضي ، قم ، إيران ، (د.ت) .